مقاربة أسلوبية في النصوص النثرية للشيخ مَحمد الغزالي

الدكتورة فاطنة يحياوي

المركز الجامعي تندوف

الجزائر

الملخص:

بواعث الفطرة السليمة وروعة القرآن الكريم هما مصدرا إلهام الشيخ الغزالي في ما أبدع من جمال ، وما تذوق من طبوع الحسن اللغوي في نصوصه النثرية .

نزع الشيخ الغزالي في نصوصه النثرية إلى اللغة التصويرية احتذاءا بأسلوب القران الكريم وأدبية إعجازه من جهة , و من جهة ثانية عبر بذلك الوجه الجميل لما وجد من تناسب مع روحه الفنية و ملكته الإبداعية. لأن الغزالي لم يتعاط العمل الترشيدي بعدة الفقيه التقليدي ، ولكنه باشر مهمته الإحيائية بجاهزية الفنان الأديب

و من خلال المقاربة الأسلوبية للنصوص النثرية عند الغزالي نتلمس الحيوية و التجدد و القدرة على الامتداد و الزمن, ذلك لأنها تشمل على خصائص المنهج الفني سواء أكان ذلك على مستوى النسيج و الصياغة و البلاغة و استخدام الأنساق النصية كالتكرار و التضاد و التقابلات و ما إلىّ ذلك من أساليب اللغة البيانية في القضايا التركيبية في البناء اللغوي, و التي كانت و مازالت السمة الأساسية التي تجعل النص منفتحا على القراءة أو المقاربة من عدة زوايا وهكذا , فالنص النثري عند الغزالي يشكل حالة أسلوبية فريدة جديرة بالدراسة.

Sheikh Al Ghazali took in his prose texts to the imaginary language the manner style of the holy Quran and its miraculous literary style in a side.In the other side, he expressed via his nice face that was found was similar and suits his artistic soul .

Through the stylistic approach of Al Ghazali texts', We grope the vitality, the regeneration, the ability to stretch and the time, that they include technical curriculum characteristics, whether that level of structure, rhetoric, and use text formats like repetition, contrast and other methods of graphic language and structural problems in the linguistic construction, which was and is still the primary attribute that makes the text open to reading or approach from several angles.

So, Sheikh Al Ghazali prose texts remain unique worthy of study.

ولأن الشعرية ظلت تلح عليه في ما يكتب ، ولأن الكتابة كانت بالنسبة إليه ضربا من الحال والانجذاب والتفريغ الشعوري الراقي ، فقد دأب على إلباس حججه وسياقاته الإثباتية بزة تعبيرية قشيبة تتحول فيها الفكرة جمالا نثريا تلون بظلالها المناظر والآفاق .

إن النص النثري عند الغزالي يتقوى حضورا من الغنى الروحي الذي شكل مقوما معنويا بسطته القريحة الغزالية بدقة الجراح ، وسكينة الخطاط ، وكأن صاحبها يحفر على فصوص الألماس ، أو مختمات الإبريز .

ومن خلال هدا المقال الذي عنوناه بالمقاربة الأسلوبية في النصوص النثرية للشيخ الغزالي نحاول تلمس الحيوية ،والتجدد والقدرة على الامتداد والزمن ، وهل اشتملت هذه النصوص على خصائص المنهج الفني ؟ سواء أكان ذلك على مستوى النسيج والصياغة ، والبلاغة والتكثيف أو المجاز في الاستعارة والتشبيه والكتابة والاستطراد وما إلى ذلك من أساليب اللغة البيانية ، واستخدام الأنساق النصية كالتكرار والتضاد والتقابلات والتناظر والإيقاع ، التي كانت وما زالت السمة الأساسية التي تجعل من النص منفتحا على القراءة أو المقاربة من عدة زوايا ..

وقد قلت الدراسات الأكاديمية التي تهدف لاستجلاء مكنونات النص النثري عند الغزالي وسبر أغواره الدلالية والبنائية وتلمس جمالياته ، ومستويات القراءة والتلقي المكتنزة فيه .

يبقى النص النثري عند الغزالي بكل زواياه ـ التي سنتعرض لها ـ من أهم القضايا النقدية والجمالية على مستوى الأسلوبية ، حيث يتحول الكلام من مستوى التعبير العادي إلى المستوى الاستثنائي الذي يمنحه صفة الجمال وتجعله منفتحا على المقاربة النقدية ، وذلك عبر آليات التأويل ، ومن أجل طرح قواعد جمالية لتلك النصوص النثرية .

1. جمالية التقديم والتأخير:

إن قضية التقديم والتأخير في بناء اللغة هي من أكبر القضايا التركيبية ظهورا في الإفصاح عن الجهد الذي بدله الكاتب أو المفكر ، وذلك من أجل العدول باللغة عن كينونتها المتمثلة في الأساليب التقليدية التي لا تخرج اللغة إلى فضاء التميز والجمال ، مما يعرف عند النقاد بشعرية النظام أو خرقه وذلك لخلخلة في بنية التموقع الجمالي.. وظاهرة الجمل الاعتراضية هي إحدى تجليات هذه الخلخلة في بنية الكلام أو قل هي نوع من أساليب الالتفات.

فالتقديم والتأخير كسمة أسلوبية في النص النثري عند الغزالي .، قد تحدث عنها البلاغيون القدامى وفصلوا القول في تحديد مواطنها التركيبية والجمالية وما يترتب عليها في تحديد إعادة أو إساءة في النظم ، فابن قتيبة وهو يتحدث عن الآداب التي تقتضي من الكاتب الالتزام بها في مدونته المشهورة بأدب الكاتب قائلا :" نستحب له إن استطاع أن يعدل بكلامه عن الجهة التي تلزمه مستقل الإعراب ليسلم من اللحن والقباحة والتقعير"1 ، وهذا النص إشارة واضحة إلى ظاهرتي التقديم والتأخير وكيفية توظيفهما أسلوبيا في عملية التراكيب المختلفة للجملة الواحدة .

أما قدامة بن جعفر .، فهو يجعل التأخير و التقديم عيب من العيوب التي تلحق الشعر وتهجنه ، ولم يذكره في كتابه " نقد الشعر " كوسيلة أسلوبية تستخدم لتحسين الكلام وتنميقه ، بل اكتفى بفعل الاستهجان " وجعل تلك الظاهرة عيبا من عيوب الأسلوب والتركيب لقول ابن قدامة " أن تكون أوضاع الأسماء والأفعال والمؤلفة منها ، وهي الأقوال على ترتيب ونظام لم يظهر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه ، ولا إلى تقديم ما يجب تأخيره منها " 2 .

أما أبو هلال العسكري فقد فصل القول في التقديم والتأخير دون أن يعين له فصلا خاصا في كتابه " الصناعتين " ، حيث بدأ بالحديث عن أخطاء المعنى وعلتها بقوله :" والمعاني بعد ذلك على وجوه منها ما هو مستقيم حسن كقولك : قد رأين زيدا ، ومنها ما هو مستقيم قبيح نحو قوله : أي قد استفاد الكلام تركيبا وسلم من الناحية اللغوية، من حيث التزامه بقوله على التركيب لكنه قبحه من ناحية المعنى والدلالة ، وقد رد العسكري ذلك إلى التقديم والتأخير بقوله ، لأنك أفسدت الكلام بالتقديم والتأخير . أي نظام المعنى أو التركيب " 3. وهنا نجد أن العسكري يضع قاعدة معنى التراكيب ،أي تراكيب النحو من الوجهة البلاغية ، وهدا ما سوف يستدركه عبد القاهر الجرجاني في مؤلفه " دلائل الإعجاز" 4 فالعسكري يحكم الذوق في الحكم على سلامة المعنى بعيدا عن البنى النحوية التركيبية ويقول العسكري :" وينبغي أن ترتب الألفاظ ترتيبا صحيحا ، فتقدم منها ما كان يحسن تقديمه ، وتؤخر منه ما كان يحسن تأخيره ، ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا تؤخر ما يكون التقديم به أليق "5. ، وهنا إشارة واضحة من العسكري إلى ضرورة استخدام الكلام على النسق المعتاد أو ما ألفته العرب .، أي ضرورة التقييد بعادات اللغة والأسلوبية عند العرب ، يقول :" فتقدم منها ما كان يحسن تقديمه ، فالمبتدأ

مقدم والفاعل مقدم وصاحب الحال مقدم عليهما ، وتلك هي أوجه الكلام الفصيح ، فلا حاجة إلى التقعيد والألغاز في التركيب باستخدام التقديم والتأخير "6

أما في قضية النظم أو ما يسمى حسن الوصف وسوءه ، فنجد أن العسكري يشرحها قائلا ": وحسن الوصف أن توضع الألفاظ في مواضعها ، وتمكن في أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة ، إلا حرفا لا يفسر الكلام ولا يعني المعني ، ويضم كل لفظة منها إلى شكلها وتضاف إلى لفقها وسوء الوصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرفه عن وجوهها ، وتغيير صيغتها ، ومخالفتها الاستعمال في نظمها "7. هذا النص يؤكد أن النقاد القدامى وعلى رأسهم العسكري قد تطرقوا إلى ظاهرة التقديم والتأخير ودورهما في إضفاء جمالية على النصوص ، ويجعل حسن النظم بأن تأتي الألفاظ التي تكون التركيب على النسق المعهود نحويا وضرورة الالتزام بالقواعد التركيبية التي وضعها النقاد العرب ، ولا يستعمل فيها في أي تقديم أو تأخير أو حذف أو زيادة إلا بشروط معينة ، كعدم إفساد الكلام .

إن ظاهرة الجمالية الأسلوبية تتولد من خصوصيات يمتاز بها البناء اللغوي ، حيث في الحقل الأدبي يتم التركيز على مستويات اللغة : الصوتي والتركيبي ، والإيقاعي والدلالي ، وبذلك تتحقق تلك المستويات من خلال بنية خاصة وسياقات محددة ، ، حيث يتم دمج التركيبة في عملية أسلوبية كالإيجاز والحذف والخبر والإنشاء .

أما على مستوى التركيب ، فيقع انزياح دلالي للألفاظ ، وتتعدد تلك المعاني الجزئية ، لتصل إلى المفهوم العام عبر بنيوية موضاعاتية 8 .

وبناءا على ما ذكرناه سنحاول تأطير النص النثري عن الغزالي في وضعيات معينة وندلل على ذلك بمجموعة أمثلة يقول الغزالي :" إذا دهمتك شدة تخاف منها على كيانك كله ، فما عسا ك تصنع ؟تدع الروع ينهب فؤادك ، والعواصف الجائحة ترمي بك في مكان سحيق ، أم تقف مطمئنا ، وتحاول أن تتلمس بين هذه الضوائق مأمنا يهديك إليه الفكر الصائب "9

هذا النص يفاجئنا بجماليته التعبيرية والصورية ، وهو بناء مفتوح على الدلالة ، النص ابتدأ ولما ينتهي كحركة وفضاء .

إن قراءة متأنية للنص تشكل عملية ضرورية لمقاربة أي نص ، وأن الكشف عن الدلالة النصية لا تكون إلا من خلال بنى وعلامات ، وتنشأ من خلال وحدات دلالية يمكن التقاطها في كل وحدة أو جملة ، أو بين الوحدات الصغرى والكبرى وعلى مختلف المستويات .

إن الكشف عن العلامات الجمالية تتحقق في مستوى دراسة علائقية مع علاقة تعارض وتضاد إضافة إلى تراكيب تحمل تلميحات وتضمينات 10

وإذ أردنا أن نتوقف عند ظاهرة التنسيقات الصوتية ،والهندسيات الموسيقية والتوازيات والدلالات النامية ،والتكرارية ،والترجيح ،والتداخل، والتكثيف اللفظي لتطلب منا ذلك عدة دراسات.

ويمكن مقارنة النص السابق من خلال مقاربة لسانية بنيوية والتي تتميز بغياب العناصر عند حضور عناصرها .

والتحليل الألسني البنيوي يكز على العلاقات الترابطية والاستبدالية الأولى ذات طبيعة أفقية حضورية والثانية ذات طبيعة عمودية غيابية والغياب هو الذي يوحد بين الأجزاء والمعاني المتجسدة في النص والخاضعة لقانون التداعي مما يسمح للعلاقات الاستبدالية بتوليد المعاني من الفجوات والثغرات وهدا ما يطلق عليه الواحد / التعدد 11

وقد أشار ابن خلدون إلى ظاهرة الإيجاز في اللسان العربي ، فقصدية اللغة تحتم على المبدع الاقتصاد في الكلام ، ذلك أن تكرار العبارة هو الذي يؤدي إلى شيء للمملكة اللغوية ، فالدلالة يمكن أن تخلق من غير الألفاظ .، أي يمكن أن تأتي من خلال الحركات النحوية التي تحدد الدلالة الوظيفية لكلام في الجملة والسياق أيضا يرسم لنا الدلالة ، فاللفظ في سياق معين يؤدي إلى معنى غير الذي وضع في سياق ومقام آخر ،

وكان الرسول . صلى الله عليه وسلم . يقول :" أوتيت جوامع الكلم وأختصر لي الكلام اختصارا 12، فالإيجاز من خلال الحديث الشريف السابق ، هو الحصول على المعنى من دون الالتفات إلى أصل اللفظ 13 ، أو كما عرفه السكاكي " هو أداء المقصود من الكلام بأقل عبارة متعارف الأوساط "

أما الشجري فيرى أن الحذف اختصار ، لأن المحذوف كالمنطوق به من حيث كان الكلام مقتضيا له فعلة الحذف إذن الصاحبة التي يكتسبها الكلام بعده .14

والواقع أن ظاهرة الإيجاز من القضايا البلاغية والأسلوبية المعقدة التي التفت إليها النقاد المحدثين والقدامى ، وذلك لارتباطها بعدة حقول معرفية كالبلاغة والنحو واللسانيات والأسلوبية ذلك أنها " لا تتعلق بالقلة والكثرة في معناها الكمي الخالص ، فالقليل من اللفظ والكثير من المعنى صفتان نوعيتان ترتبطان تحديدا بخصوصية العلاقة القائمة بين مكوني العلاقة اللغوية ، وهي علاقة يعد لها التضاد ، ويراد منها تحقيق معادلة صعبة لا تتأتى إلا للبليغ الخبير بطرائق استثمار الطاقة الايجابية للغة ، ولولا أهمية الإيجاز بما هو قاعدة مركزية حاضنة لعلاقة اللفظ بالمعنى في تصوير العرب للبلاغة والإيجاز ، فكان الإيجاز لديه من أبرز مرتكزات البلاغة "15

والحذف يتعلق باللفظ فيه ثم حذف تخفيفا وقطع منه ، في حين أن الإضمار يمس ما لم ينطق به ثم حذف ، ولكنه مضمر في النية مخفي في الخلد 16 ، كما يجب أن نحدد أضرب الإيجاز التي حددها القزويني بضربين " الإيجاز القصير وما هو ما ليس بحذف كقوله تعالى " ولكم في القصاص حياة " سورة البقرة ، الآية 179 فإنه لا حذف فيه مع أن معناه كثير يزيد على لفظه ، لأن المراد به أن الإنسان إذا علم أنه متى يقتل قتل ..ذلك داعيا له قويا إلى أن يقدم على القتل ، فارتفع بالقتل ، الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض ، فكان في ارتفاع القتل حياة لهم ، ثم الحذف والمحذوف ، إ ما جزء جملة أو جملة أو أكثر ."16

أما ابن الأثير فهو أول "من ذهب إلى الجمع بين سياق الحذف بسياق الإيجاز ، كما ربط في سياق الذكر بسياق الإطناب "17

و الجاحظ له في الإيجاز البلاغي رأي خاص ، وهو يراه من خلال أنموذجين أولهما : الحذف وثانيهما الجمع والتكثيف ، ويتمثل في شحن الكلمات بمعان تربو على طاقتها العادية ، دون الاعتماد في ذلك على غير الألفاظ الموجودة في النص ، والقارئ مطالب بالاكتفاء بالألفاظ المعروضة عليه دون السعي إلى اكتشاف الألفاظ التي قد يظنها محذوفة أو مقدرة " 18

فالجاحظ إذن يضع تصورا متميزا عن علاقة اللفظ بالمعنى ، من خلال قاعدة الإيجاز مشكلة من ضدية الاقتصاد في اللفظ والكثرة في المعنى تحقيقا للفائدة والمنفعة 19

إن الحذف سمة من سمات البلاغة عند العرب ، هي ليست أمرا دخيلا ، بل هي ظاهرة تتطلبها السجية والتورية ويفرضها منطق التعامل مع الألفاظ ..وفن يزيد النص حسنا ، يضاف إلى ذلك أنها ظاهرة تجنب الثقل الذي يسببه التقاء الساكنين أو عدم تجانس الحروف ، كما أن الحذف

يساعد على الفهم السريع للمعنى ويجعل القارئ في اتصال دائم بالعناصر الأخرى المكونة للجملة ، فيسهل عملية الربط بينهما فله إذن دور مهم في الوظيفة الإبلاغية والاتصالية 20

ومن شواهد النهج على جمالية التقديم والتأخير بتمظهراتها المتنوعة في نصوص الغزالي النثرية قوله ": نعم : قد يقع في القرآن تفصيل بعد إجمال أو تقييد بعد إطلاق ، أو تخصيص بعد تعميم ، بيد أن ذلك شيء غير الزعم بأن هناك آيات بطل حكمها بعد أو وقف تنفيذها "21 .نجد إحساسا غامضا بأن محتوى ما تكتنفه تجعل بالإمكانية تحقيق صدى جمالي ، لا يعرف أسبابه مع ما يقدمه من وضوح الدلالة التي يكتنفها . لكن هدا الإحساس بجمال اللغة لا يقتصر على النظر إليها من زاوية واحدة فأكثر من عامل شارك في إنتاج هدا النص ، أولها عنصر التكثيف في إيصال الفكرة والاختصار في عدد المفردات المكونة للكلام عبر ظاهرة الإيجاز منصهرة في تركيب الكلمات التي يحكم نظام الجملة .

وعندما نتساءل ماهو العنصر الذي يجعل من هذا النص أو ذاك النص من النصوص أكثر جمالية فإن علم الأدب يقرر أنه ليس في تصنيف الإنتاج الفردي بقدر ما هو في الإجراءات التي تتضمنها مع التأكيد على أن الشعرية والأدبية تحملان نفس المفهوم ، وهذا يؤكد لنا ضرورة الالتزام بالجملة كمفردة جوهرية في الخطاب أو جسدا كليا يتشكل من مجمل الإجراءات المقاربة للنصوص .

والغزالي هنا مقتدر ببراعة على تغيير مواقع ألفاظه ، وإظهار ما يستحق التركيز عبر آلية التقديم والتأخير والالتفاف حول المعنى الذي يراد الإشارة إليه ، فإذا حاولنا قراءة النص على فرض أن تكون في السياق العادي يمكن أن يصل الكلام إلى المعنى الذي مفاده أنه إذا لم يكتب الإنسان الإرادة فلا مجال للمغامرة في وضوح مشاريع وأهداف وغير ذالك من السياقات التركيبية والأبنية النحوية التي يمكن أن تحمل المعنى نفسه ولكن تفقد خصوصياتها الجمالية في التركيب ومن خلال هذا العدول في تشكيل سياق المفردات في الجملة تتحرك فاعلية الربط بين دلالة الكلي والجزئي في عبارات موجزة حيث تجمع بين المفاهيم والمضامين.

وإذا ركزنا في الملمح المناسب هنا نجده بلا شك يتمثل في الكثافة في طرح الأفكار والدلالات باختصار أكثر ، وهذا يؤكد لنا القول الذي يذهب إلى أن خط التطور البارز في

الشعرية العربية المعاصرة يتمثل في التقلص المتزايد للأساليب التعبيرية ، وهذا يستدعي توظيف آلية التأويل التي تنفتح على الدلالة .

2. التمثيل والاستشهاد:

من اللوازم الأسلوبية للغزالي الإكثار من الشواهد القرآنية والأحاديث الشريفة ومأثور القول وحتى الشعر الحديث ، وهو يهتدي إلى كل تلك الإستشهادات من خلال عين بصيرة ، وذوق رفيع حيث يضعها في سياقاتها المنافسة ، فيتحقق بذلك الانسجام والجمالية والتوافق ، وكانت تلك الشواهد جزء من قطعة نسيج النثر الذي يحكيه ،كما أنه يحسن انتقاء الشواهد القرآنية وهي تضفي على النص قوة في المعنى ، وما جاء في التركيب نجد ذلك في قوله رحمه الله" 22حسب أحدهم من هذه الأرض أن تكفل ضروراته ورفاهيته ، ولا شيء بعد " أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى " سورة العلق الآية 14.13 .وقوله ومع ذلك فإن الأمر اقتضى زجرا لأعداء الدعوة ، وتخويفهم بما أعد الله لهم يوم اللقاء " كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فليدعو ناديه * سندعو الزبانية " سورة العلق الآية 15.ثم يعلق على هذه الآيات الشريفة بقوله :" وإذا ألقينا نظرة ثانية على السورة الثانية التي نزلت من الكتاب العزيز سورة المدثر وجدنا جملة من العناصر مؤلفة على نسق آخر : العقيدة والدعوة ومعالم المجتمع الثانية ، وجهاد النفس ، وجهاد الناس وتحريك الحياة كلها تعمل لربها ، وتستمد منه وحده وتستعد للعبادة أخيرا " **يأيها المدثر * قم فأندر**" سورة المدثر الآية 2.1 .

أما في كلام آخر نجد الغزالي يحسن توظيف الحديث ، يقول 23:"إن نبي الإسلام لما قال للسائل عن البر : استفت قلبك ، وإن أفتوك الناس " لم يقدم هدا الجواب هدية لمجرم يستبيح الدماء ويغتال الحقوق ، وما أكثر الدين تتسع ضمائرهم للكبار ".وفي نفس المدونة نجد قوله " والظروف الباسمة أو الكالحة التي تلتف حواليك ، هي وحدها الدعائم التي يتمخض عنها مستقبلك ، فلا مكان لأخطاء أو انتظار ، قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم .:" إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل " هذا في باب تعرضه إلى ضرورة أن يجدد الإنسان حياته فالحياة تبلى كما يبلى الثوب ، وعلى المرء أن يجدد ذلك الثوب ، أو تلك الحياة بالتفاؤل والأمل والعودة إليه وتجاوز السلبيات ، و أن يعيد يناء نفسه على أشعة من الأمل ، إضافة إلى استشهاده بالنصوص الدينية والحديثة ، نجد أن الغزالي استعان

بمجموعة من الاستعارة وذلك وفق السياقات والمقام ويكاد يحصر مدة الإستشهادات بالشعر العربي القديم وذلك لشدة حضوره في الوجدان والأثر الذي يتركه في النفس العربية .

يقول الغزالي :" إن الدين في حظره للإسراف وحبه للاقتصاد إنما يؤمن للإنسان على مستقبله بالأخذ من صحته لمرضه ، ومن شبابه لهرمه ، ومن سلمه لحربه ..أتدري كيف يسرق عمر المرء منه ؟ يذهل عن يومه ؟ في ارتقاب غده ولا يزال كذلك حتى ينقضي أجله ، ويده صفر من أي خير .." 24

أسلوب النص يتجلى فيه الوضوح والبساطة والكثافة ، وهي كل عناصر توفر عنصر الجمالية من جهة تترك أثرا في النفس والوجدان ، وهذا هو هدف الجمالية أو الشعرية أن تترك أثر ذلك .

إن النص له وظيفة إبلا غية وو ظيفة جمالية ، فاللغة ليست فقط هي جوهر ، وهي الذات ،بل هي وسيلة لإبلاغ رسالة للمتلقي ذات مضمون وقد وظف الغزالي الشعر ، فإذا كان النثر يخاطب العقل من خلال المباشرة وتحريك قوى الذهن فإن الشعر يحرك الوجدان والعاطفة والخيال والإحساس ، يقول الغزالي :" وفي أدب العرب ذخائر لا تحصى من شهامة الرجال في استقبال المحن ومن حرصهم على الخروج عنها مخرجا لا يخدش المروءة والشرف ولا ننسى أن نذكر هنا أبيات ثابت بن زهير الملقب "بتأبط شرا " :

إذا المرء لم يحتل وقت جده *** أضاع وقاسى أمره وهو مدبر25

ولكن آخر الخرم الذي ليس نازلا * به الخطب إلا وهو المقصد مبصر**

فذلك قريع الدهر ، ما عاش حول * إذا سد منه منخر جاس منخـــــــر**

وتأبط شرا يعتقد أن شر آثاره القلق تبدده القدرة على التركيز الذهني ، ففي حالة القلق تتشتت الأفكار ويعجز العقل عن حسم تلك المشكلات واتخاذ قرار فيها ، وإذا قصر الإنسان المشكلات على مواجهة أسوء الاحتمالات ، فإنه سيكون قابلية لتحمل أي نتائج ، والنفاذ إلى صميم الواقع وأمكنه الخلاص منها ، وذلك أن الإنسان الذي يضبط أعصابه أمام الأزمات ، ويتسلح بإرادة ، سيحقق نتائج ايجابية ... وتأمل في قول شاعر آخر :

أقول وقد طارت شعاعا * من الأبطال ويحك من تـــراع 26**

فإنك لو طلبت بقاء يوم * على الأجل الذي لك لم تطاع**

إن هذه الأبيات تصوير فني ، وهو يحتوي جمالية في التركيب والإيقاع ، وانتقاء الألفاظ التي تملك شاعرية وإيحاء ، وهو موقف إيجابي للرجولة أمام النوازل العصبية ..

3 . الوجوه المتقابلة:

يكثر الغزالي من توظيف التضاد ، أو ما يمكن أن نسميه " الوجوه المتقابلة "27 وما يسمى فنيا "المفارقة ".، وهو أسلوب " يعتمد بصفة أساسية على عرض المتناقضات ، أو المتقابلات ، فهو يقتضي وجود طرفين تربط بينهما علاقة الضدية ، وقد تكون المفارقة بين لفظين كالأبيض والأسود ، كما تكون المفارقة بين صورتين أو لوحتين متقابلتين لهدف فني أو فكري " ويسميها بعضهم " بلاغة الأضداد "28. والتناقض في المفارقة التصويرية فكرة تقوم على استنكار الاختلاف والتفاوت بين أوضاع كان من شأنها أن تتفق وتتماثل ، أو بتعبير مقابل : تقوم على افتراض ضرورة الاتفاق في ما واقعه الاختلاف " 29

وواضح أن الهدف الأساسي من المفارقة هو خلق التمييز القوي الواعي لإدراك الفرق الشاسع بين الوجهين المتقابلين ، فبضدها تتميز الأشياء ، وذلك يكون قوة نفسية دافعة للمتلقي أن يختار الوجه الأحسن الأفضل .

وقد وظف الغزالي الكثير من الوجوه المتقابلة في نصوصه النثرية ومن ذلك قوله " النفس المختلة تثير الفوضى في أحكم النظم ، وتستطيع النفاد منه إلى أغراضها الدنيئة ، والنفس الكريمة ترقع الفتوق في الأحوال المختلة، ويشرق نبلها من داخلها، فتحسن التصرف والمسير وسط الأنواء والأعاصير " 30

وقوله :" تمثيلية الصلاة في إطار من غيبوبة عقلية تامة ، هل له من صلاته شيء ؟ إننا لن نعده مبارزا بالعصيان ، وتاركا للفريضة، لكن هل هده التمثيلية تزكي نفسا، وترفع رأسا؟ "31 " والأمة المجاهدة صنع أناس يغالون بإيمانهم ، ويسخرون ما يملكون لدعمه ، ويوجهون مواهبهم العلمية وأنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية لخدمة ما يعتقدون "

ومع سهولة الأسلوب وتدفقه وحلاوته نرى السجع قليلا في عباراته ، وأكثر منه الازدواج فالأسلوب في مجموعه أسلوب مرسل لا تكلف فيه ، ولا تصيد ، كما أنه في أدائه يكثر من التكرار المعنوي أو ما يسمى بالترادف ، أي أداء المعنى الواحد بأساليب متعددة بهدف تأكيد المعنى وترسيخه كما أنه يزيد من امتداد جاذبية الأسلوب ، ومن ثم تقوية ارتباط القارئ بالمقروء

تحقيقا للغرض المرجو المنشود .ومع ذلك نجد في التكرار المعنوي بعض الفروق الكمية بزيادة محدودة في المعنى ، أو ملمحا . ولو ناصلا . بفتح الطريق لزيادة في التفكير والتوليد ، ومن التكرار المعنوي قوله :" ونظرت للقراء الذين يطالعون الصحف ، والجمهور الذي يسمع الإذاعة فما وجدت جبينا مقطبا ، ولا عينا دامعة ، ولا تعليقا محزونا ؟؟ إنهم يقرؤون أخبارا لسكان كوكب آخر ؟" 32 .

" إن الغزو الثقافي نجح أتم نجاح في إماتة الأخوة الإسلامية ، وإهالة التراب عليها "33

ومن سماته الأسلوبية إيثار نوعين من الجمل : الجمل المساوية التي تأتي على قدر الفكرة المعبرة عنها 34، وأكثر منها الجمل الطويلة التي تتسع للفكرة المنبسطة الممتدة كما رأينا في نص سابق . وتجسيم المعنويات ، أي ابراز المعنوي في صورة حسية . وكذلك تشخيص الجامد ببث الروح والنبض فيه . فكأنه حي من الأحياء وهي ظاهرة مطردة في التصوير عند الغزالي ، كما نراها في الآتي :

" ولن يتم تذوق النفس لبرد الرضا بإصدار أمر جاف ، أو فرض تكليف أجوف ، كلا فالأمر يحتاج إلى تلطف مع النفس ، واستدراج لمشاعرها النافرة ، وإلا فلا قيمة لأن تقول : أنا راض ، ونفسك طافحة بالضيق والتقزز ، وأول ما يطلبه الإسلام منك أن تتهم مشاعرك حيال ما ينزل بك "35 لقد جسم الغزالي الرضا ، والأمر ، والضيق ، والتقزز ..فبدت في صورة حسية مجسدة ، كما شخص : النفس والمشاعر .، فإذا بها في صورة حية نابضة . وهذه الظاهرة التصويرية . زيادة على ما فيها من طرافة . تبرر المعروض أمامنا فإننا نراه رأي العين ، فيزيد إحساسنا به ومعايشتنا له ..

فالتصوير "هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني والحالة النفسية ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني ، والطبيعة البشرية ، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة ، أو الحركة المتجددة ، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة ، ، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي ، و إذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية 35

إن المتأمل للمسار الكتابي للشيخ الغزالي على مدى أكثر من نصف قرن ، يقف على كم هائل من الممارسات النصية التي حددتها ثقافة الكاتب ، وكرستها التجربة الإبداعية المتراكمة.

ومن خلال هذا المقال الذي حاولنا فيه استكناه جمالية الأسلوب عند الغزالي من خلال نصوصه النثرية ، وجدنا أن هذا النص يتماهى والبعد الديني الدعوي إلى درجة عدم التمايز في كثير من الأحيان ، فلم تكن هذه الجمالية الأسلوبية لتغفل المضمون الرسالي والدعوي لهذا الأديب الداعية .

وقد وقفنا عند دراستنا للنص النثري عند الغزالي ،أن الروافد المعرفية التي نهلت من خلفيات تراثية كان لها بالغ الأثر في توجيه الأداء النصي للشيخ الغزالي ، والتي شكلت هاجسا ملفتا للنظر ، مع حضور كبير لتأثير النص القرآني والحديث في تأسيس جمالية تلك النصوص النثرية التي حفلت بها مدونات الشيخ الغزالي .

أن جمال الأسلوب عند الغزالي لا يظل محافظا على مسار واحد وهو الإطار الفني الملازم للصور البيانية البلاغية فحسب ، وإنما يبتعد ليصل إلى تلك الأساليب القائمة على مبدأ الإقناع والإمتاع ، فهو يستخدم كل الأدلة والحجج العقلية والنقلية لإقناع المتلقي ، على أن يكون الإمتاع قائما على مبدأ الذوق والتصوير الفني المبدع ، الذي يشخص المفردات المجردة ويجسمها لتختلق فيها الحركة والصورة والظلال ، ولقد كان من ثمار هذا النوع من التمازج بين لغة الخطاب الأدبي ولغة الخطاب الدعوي ، أن برع الغزالي بكل ما يملك من زاد معرفي وعلوم شرعية وبلاغية وعقلية .

. فالغزالي عاش القرآن معنى ومبنى ، وتربى على مائدة الإسلام بعقيدة قوية وعقلية ناضجة ،، وحافظة واعية ، فلا عجب أن يتأثر بالأسلوب القرآني وطوابعه الفنية ومضامينه وتوجيهاته الإنسانية .

قائمة المصادر والمراجع والإحالات :

1. ابن قتيبة : أدب الكاتب ،دار المعارف ، القاهرة ، 1980،ط 4،ص 300
2. قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق كمال مصطفى ،مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1958م د.ط، ص 100
3. أبو هلال العسكري :الصناعتين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط2، 1989م،ص33
4. عبد القاهر الجرجاني : أسرار اللغة ، تحقيق هنري ريتار ، مكتبة المتنبي ، 1979م، د.ط ،ص 80
5. أبو هلال العسكري (مصدر سابق) ص 37
6. المصدر السابق نفسه ، ص 38
7. المصدر نفسه ، ص 67
8. نبيل أيوب : الطرائق إلى نص القارئ المختلف ، دار الأهلية ، بيروت ، ط1، ص65

9ـ محمد الغزالي : جدد حياتك ، دار النهضة ، القاهرة ، 2004م، ط9، ص 276
10ـ : نبيل أيوب (مرجع سابق) ص 66
11ـابن خلدون : المقدمة ، دار التراث ، القاهرة ، 1975م، ص276
12ـ أحمد الورداني : قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، 2004م د.ط، ص 798
13ـ محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية ،دار الفكر ، دمشق ،2007م ط3، ص 7
14ـ السكاكي : مفتاح العلوم ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه زرزور محمد ، دار الكتب ، بيروت ،1987م ،ص 277
15ـ محمد الصغير بناني : النظريات اللسانية والبلاغية الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبين ،2008م ط4، ص265
16ـ يحي ابن حمزة العلوي : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ،القاهرة ، 1994م، د.ط ،ص 444
17ـ زغودو ذياب : دلالة الحرف في القرآن الكريم ، مجلة الأثير ، جامعة ورقلة ، ماي 2005م، ص125
18ـ محمد الصغير بناني : (مرجع سابق) ص 270
19ـ المرجع نفسه ص 271
20ـالمرجع السابق نفسه ص 272
21ـ محمد الغزالي الدعوة الإسلامية في القرن الحالي ،بيروت، 2004، ط5 ،ص8
22ـ المصدر نفسه ص 10
23ـ محمد الغزالي: الإسلام والطاقات المعطلة ، دار الصحوة ، القاهرة ، 1987م،ط5، ص144
24ـ محمد الغزالي : جدد حياتك (مصدر سابق) ص 25
25ـ المصدر نفسه ص 26
26ـ المصدر السابق نفسه ص 26ـ 27
27ـ علي عشري زايد :عن بناء القصيدة العربية الحديثة ،مكتبة العروبة ، الكويت ، 1981م ، ط2،ص138
28ـ محمد الغزالي : الغزو الثقافي يمتد في فراغنا ، دار الصحوة ، القاهرة ،1987م، د.ط، ص69
29ـ المصدر نفسه ص 87
30ـ المصدر السابق نفسه ص 89
31ـ محمد الغزالي : تأملات في الدين والحياة ،دار الكتاب العربي ،القاهرة ،1951م،د.ط، 102
32ـ محمد الغزالي :جدد حياتك (مصدر سابق) ص94
33ـمحمد الغزالي : الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (مصدر سابق) ص89
34ـ جابر قميحة : المدخل إلى القيم الإسلامية ، دار الكتاب العربي ،القاهرة ،1984م،د.ط، ص23
35ـسيد قطب :مشاهد يوم القيامة ، دار المعارف ، القاهرة ، 1947م، ط3، ص 5.